الذي وجدت الادارة الاستعمارية نفسها فيه ، نتيجة ، فيما يظهر ، لعتاقة التقنيات ولجمود المجتمع التقليدي · ويلخص لنا بيرك هذه المحاولة في صيغة ملفتة للنظر :

« وضع « الجماعة » فوق جرارة الحصاد » · ثم سيكتب بعد مرور ١٧ سنة على بداية تلك التجربة بان : « حركة طبقة المزارعين المغاربة ولدت من الالتقاء بين ملاحظة سوسيولوجية متصلة بحيوية العشائر القروية في بلدان المغرب ، وبين رهان على تجهيز الفلاحة بالمحركات » (٥) ·

رهان على ماذا ؟

الجواب : على ابقاء الاستعمار · والا كيف نفهم ذلك التصريح الذي اعلنه بيرك نفسه بمناسبة تلك التجربة المزعومة : « تتلخص المشكلة فيما يلي جمع وصهر ، صعود السكان المحليين مع العمق الفرنسي ، في حركة واحدة (٦) » ·

كان بيرك يشغل منصب مراقب مدني ، في عهد الحماية الفرنسية ، وقد اثبت في اطروحته لدكتوراه الدولة ، اقامته بالقرب من مدينة مراكش · ومنذ استقراره بباريس ، اخذ يتجاوز اطار المغرب الضيق ليصبح منظرا مستعربا لتصفية الاستعمار · حاول بيرك ان ينظر هذا الانتقال من الاستعمار الى الاستقلال · لكن عندما لا يفكر في انتقال تاريخي بما هو كذلك ، فانه يغدو انتقالا في الفراغ : لقد اسهب بيرك في القول بأنه يفجر الاستشراق ، وبأن البحث بالمشاركة يجب ان يترك الكائنات والاشياء تأتي الينا ··· لكننا متأكدون باننا ، معه ، لن ننتقل الى اي مكان · لماذا ؟ ان هذا الوارث التركيبي للاستشراق في بلدان المغرب ، يجرب عصره وحقل تحليله (« عربه ») وكأنهما الة صغيرة حقيقية تلتهم كل شيء · يمكنكم ان تعاينوا ذلك اذا كان لديكم فضول قراءة ما كتب ، وستجدون انه ينتقل من مؤرخ اجتماعي (مدرسة الحوليات) ليصبح سيميولوجيا قافزا من حالة « نظرية » الى اخرى قبل ان نتمكن من استرجاع نفسنا ·· ها هو يطبق السيميولوجيا على العرب بعد ان كان ظاهراتيا منبضا يستوحي قراءة جد خادعة لما كتبه سارتر في الموضوع (على اننا نعرف المغامرة السيئة لسارتر مع فكر هيدجر) ·· وقد كان بيرك ، قبل ذلك مرة اخرى ، اثنولوجيا متأثرا بليفي ستروس ، ولسنيا بنيويا ، ومحللا نفسانيا لظاهرة تصفية الاستعمار ، ولفورة الاستقلالات الملونة الحماسية ·

ان ما يقوم به بيرك ، باسم التحليل النفسي ، هو دراسة ما لا يمكن استباره من نفسية الاعماق المتصلة ، كما أوضحنا ذلك مرارا ، بتقديم لاهوتي « للاعماق » ·

ومن السهولة بمكان ، ابراز مراحل هذا القفز النظري في اعمال جاك بيرك · الا اننا نؤثر تجنب بعض التفاصيل ، لنتابع تحليل هذا الكل المترنح · على ان هذه السرعة النظرية ، وهذه المهارة التي لا تترك اية موضة نظرية تفاجئها ، قد انتهتا الى تضليل بعض المثقفين العرب · والواقع ان التضليل يصبح كاملا عندما يزيد مستشرقنا ، بجرة اصبع ، من حدة التناقض المصطنع :

« اذا كانت هذه المجتمعات (العربية) لم تتوفر بعد على التاريخ الذي تستحقه ، فان اللغة العربية ليس لها ، بل ما ابعدها عن ذلك ، المجتمعات التي تستحق » (ص ٥٧) ·